الجذور التأريخية للصراع بين الدولة والكنيسة الغربية في أوربا (312-550م)

م.م.يونس عباس نعمة
جامعة بابل -مركز بابل للدراسات

المقدمة:

شكل التنافس والصراع بين السلطة الزمنية المتمثلة(بالإمبراطورية الرومانية حتى انهيارها في الغرب عام 476م وما تلاها من حكم الأقوام التي سيطرت على إيطاليا حتى سقوط القوط الشرقيون عام 552) على يد الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، والسلطة الروحية التي كانت متمثلة بالكنيسة الكاثوليكية، واحدة من المراحل المهمة في الصراع بين السلطتين الذي أستغرق العصور الوسطى وحقب طويلة من عصر النهضة وتأتي أهمية هذه المرحلة كونها تبدأ منذ الاعتراف بالديانة المسيحية عام 312 على يد الإمبراطور قسطنطين ولذلك يمكن ان تعد مرحلة التاسيس بالنسبة للسلطة الروحية في محاولة الاخذ بزمام المبادرة وقيادة المجتمع المسيحي ، وبناء المؤسسات الكنسية بنظام جديد ، كذلك تاتي اهمية هذه المرحلة كونها المرحلة التي اسست فيها روما ادعائاتها بالاحقية في قيادة المجتمع المسيحي من بين الكنائس الاخرى التي يمكن ان يقال انها لاتقل عنها شأنا.قسم البحث الى خمسة مواضيع ، تناول الأول الاعتراف بالديانة المسيحية من قبل الإمبراطورية الرومانية منذ عام 312م والأسباب التي دعت للاعتراف بها وأثر ذلك على الديانة المسيحية، وفي الموضوع الثاني تعرض البحث الى العلاقة بين الكنيسة والدولة بعد مرحلة الأعتراف والمشاكل التي واجهت الكنيسة لكي تنتقل من جبهة المعارضة والمواجهة للدولة إلى الأندماج في مؤسساتها وكيف أنعكس ذلك على مؤسسات الكنيسة وتطورها ، كذلك تناول الموضوع دور الإمبراطور قسطنطين في محاولة فرض أرادته على الكنيسة ودعوته لعقد مجمع نيقية عام 325 وما ترتب عليه من نتائج ، وفي الموضوع الثالث ناقش البحث موقع ومكانة كنيسة روما من بقية الكنائس الأخرى التي كانت لها أهمية كبيرة في تأريخ المسيحية والشرعية التي بنت عليها كنيسة روما تبوؤها الاحتفاظ بكرسي البابوية والأسباب التي عززت موقع كنيسة روما خاصة بعد تدهور الإمبراطورية الرومانية في الغرب ، وفي الموضوع الرابع تطرق البحث إلى أهم الشخصيات الدينية والنظريات التي دعمت موقع الكنيسة في مواجهة السلطة الزمنية والتي عززت موقع الكنيسة الكاثوليكية ورسخت مكانتها وفي الموضوع الأخير كان لابد من الإشارة الى المشاكل والانقسامات في الكنيسة خلال هذه المدة وأثره في التنافس على كرسي البابوية والتي أثرت بشكل كبير على السطة الروحية وأضعفتها وأعطت الذريعة للملوك في التدخل لصالح جهة معينة دون أخرى الأمرالذي جعل الكنيسة رهينة للسلطة الزمنية وأنتهى البحث بخاتمة وعدة استنتاجات..

اولاً :- الاعتراف بالديانة المسيحية من قبل الإمبراطورية الرومانية

أدرك الأباطرة الرومان أنه كلما ازداد الضغط على أتباع الديانة المسيحية عزز من أنتشارها وزاد في تماسك أبنائها وجعل نظام كنيستهم أشد صلابة، حتى أصبحت في نهاية القرن الثالث الميلادي تتمتع بنفوذ كبير ويمكن القول انها تمثل دولة داخل دولة بعد ان أزداد نظامها تحسنا ، كلما انحل عقد الدولة الرومانية [1]، خاصة وان الشعار الذي رفعته المسيحية المتمثل بالمحبة والمساوات والرحمة كان مؤثرا مقابل ماكان متداولا من الظلم والاضطهاد والفساد في ظل الدولة الامر الذي اضطرالدولةإلى أتباع سياسة جديدة قائمة على الأعتراف بالديانة المسيحية ومنح أتباعها حرية العقيدة وسجلت المبادرة الأولى عام 311 ، إذ صدر مرسوم جالريوس، ولينسيوس، ومن جملة ما جاء فيه :-

1- السماح للمسيحيين بإعلان آرائهم الخاصة في حرية تامة ، وعقد اجتماعاتهم السرية دون خوف أو إزعاج ، وعد هذا الأمر لبسط الرأفة والرحمة من قبل الإمبراطورية على أفرادها.
2- أن على المسيحيين أضهار الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة ، وأن عملية التسامح يجب أن تكون دافعاً إلى الصلاة والتضرع إلى ربهم الذي يعبدون من أجل سلامة ورخاء الإمبراطورية الرومانية[2] .

بالرغم من أن هذا المرسوم لم يحصل على فرصته الكافية من التطبيق ، ذلك انه كان جديد في طرحه عند الكثير من القادة التابعين للإمبراطور والذين عدوه مجرد تعليمات جديدة للتخفيف من اضطهاد المسيحيين ووقف محاكماتهم وإطلاق عدد من المساجين، غير ان عام 311 يمكن اعتباره عاماً مهماً بالنسبة لتأريخ الديانة المسيحية وأنه ثبت بعد ثلاثة قرون مارست فيها الإمبراطورية الرومانية أعتى أنواع الاضطهاد والقتل والأبعاد لحسم المعركة مع أتباع الديانة المسيحية وأن كل تلك الإجراءات لم تكن قادرة على منع أتباع الديانة الجديدة على ترك عقيدتهم وأن الاضطهاد هو عامل أضافي لتعزيز أنتشار الديانة خاصة في أوساط الطبقة الفقيرة[3].

بعد عام من إصدار مرسوم جالريوس ولينسيوس أصدر الإمبراطور قسطنطين عام 312 مرسوم ميلان، وعد هذا المرسوم كقانون أساسي من قوانين الإمبراطورية الرومانية وجاء فيه (عندما تقابلنا نحن قسطنطين وأوغسطس ولينسيوس أوغسطين في ميلان مكبلين بالرعاية والعناية ، أخذنا نبحث في جميع الوسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا ومن هذه المسائل حرية العقيدة ، لذلك قررنا إصدار مرسوم يضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الأخرى حرية أختيار وممارسة العقيدة التي يرتضونها، لنضمن رضا جميع الآلهة والقوى السماوية علينا ، كما نضمن رضا جميع رعايانا ممن يعيشون في كنف سلطاتنا وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل ألا يحرم أي فرد كائناً من كان من أختيار المسيحية ديانة له، ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يناسبه .... وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة اللذين تعودناهما منه ... وهذا المرسوم يجب ان ينشر في كل مكان حتى لا يفوت أحد الأخذ به[4].

إن التساؤل المهم الذي أثير حول مرسوم ميلان تتعلق بماهية الدوافع التي أدت بقسطنطين لاعتناق الديانة المسيحية ، وهل كانت هذه الدوافع دينية أم سياسية ، إذ أختلف في هذا الأمر بين الباحثين فمنهم من ذكر ان الدوافع من وراء ذلك كان دينياً، وانه جاء بسبب أيمان قسطنطين بالمسيحية ودليلهم على ذلك أن عدد المسيحيين لم يتجاوز عشر مجموع سكان الإمبراطورية ، وان اقدام الإمبراطور على الأعتراف بالمسيحية دليل على إيمانه ،وفي هذا السياق تتواتر قصة شهيرة نقلها أسقف قيصرية (أوزيب (Eusebe عن الملك قسطنطين وجاء فيها إنه عندما قدم قسطنطين على روما لمحاربة خصمه(ماكينتوس(، في موقعة(جسر مولين) عام 313، رأى بعد غروب الشمس هالة من النور مضيئة في السماء على شكل صليب وعليها عبارة (ستنتصر بفضل هذا) ورأى في المنام السيد المسيح ومعه الصليب وقد أمره باتخاذ الصليب شعار له فكان النصر الذي حققه من الدوافع الأساسية لأيمانه بالمسيحية[5]، كذلك استدل على الجانب الديني من خلال تصرفات قسطنطين في التسامح مع المسحيين وبناء العديد من الكنائس [6].

الدافع الثاني الذي أكد عليه العديد من الباحثين هو السياسي ، والذي جاء بعد انتصار قسطنطين على ماكينتوس في موقعة جسر مولين ذلك أنه على اثر الانتصار فيها خضع الجزء الغربي للإمبراطور ولم يبقى سوى اخضاع الجزء الشرقي الذي كان أهم المراكز المسيحية، لذلك عدة قضية مرسوم ميلان سياسية لكسب الشرق إلى حضيرة الإمبراطور خاصة وان الشرق كان غنياً بموارده ورجاله[7].

وذكرفي السياق السياسي نفسه أن مرسوم ميلان عد حركة أملتها الظروف السياسية على قسطنطين وانه حاول أستخدام المشاعر الدينية لنيل أغراضه الدنيوية ، وان معاملته للأساقفة على أنهم أعوانه وترأسه مجالسهم ما هو إلا إشارة لغرض أستخدام المسيحية وسيلة لا غاية للوصول إلى أهدافه، ويدعم هذا الراي موقفه من الانشقاق والإلحاد الاريوسي ، ذلك إن رأيه كشف عن قلة اهتمامه بعلوم الدين وان الهدف الذي كان يريد تحقيقه سياسي من خلال التوفيق بين الطرفين المتخاصمين وأبراز نفسه بدور القائد للجميع[8].

إن أهمية مرسوم ميلان كانت في اعتبار الديانة المسيحية ديانة مرخصة (Religiolicilial) من خلال إعطائها حق المساوات مع الديانات الأخرى داخل الإمبراطورية الرومانية والتعهد بحماية الارواح والممتلكات المسيحية كما معمول مع أهل الديانات الأخرى، كذلك فان الدين المسيحي بموجب هذا المرسوم أصبح شرعياً وله حق الوجود والأستمرار[9]. بعد أن أستمر ثلاثة قرون يناضل من أجل تثبيت شرعيته وإقامة شعائره لكي تصبح في يوم من الأيام بالإمكان إقامتها دون منع واضطهاد ، وقد أعيدت الكنائس التي تمت مصادرتها بعد أن أصبح المسيحي ومواطن الإمبراطورية الوثني على قدم المساوات ، لذلك أضفى هذا المرسوم انتصار جزئي للمسيحين ورحب الأساقفة بهذه الرسوم وعد قسطنطين بأنه نائب الله كما ذكر أوزيب وأنه يعد المعبر عن الكلمة الإلهية و مشارك في المملكة السماوية[10].

ثانياً:- العلاقة بين الكنيسة والدولة بعد مرحلة الاعتراف .

جائت الكنيسة بنظام جديد ، ركز على الطبيعة المزدوجة للانسان ، وان هناك عالم الروح وعالم الوجود الدنيوي واللذان يعدان في صلب جوهر المسيحية ، الامر الذي جعل العلاقة بين المؤسسات السياسية والدينية تواجه اشكالية مهمة، ذلك ان المعتقد الديني للفرد المسيحي يمكن ان يجعل منه خائنا لواجباته السياسية من وجهة نظر السلطة الامبراطورية وفي المقابل فان الخلق السياسي التي تربى عليها في ضل الامبراطورية تجعل منه من وجهة نظر المسيحية الصرفة وثنيا [11].ان من أهم المشاكل التي واجهت الكنيسة الحياة مع الدولة في النظام الجديد وعملية المشاركة في السلطة وتحمل التبعات من وراء هذه المشاركة ، فمن الواضح ان قيام نظام ديني الى جانب النظام الدنيوي الممثل بموظفي وإداري الحكومة من شأنه أن يعلن بدأ مرحلة نزاع وتنافس على السلطة يمكن أن يؤدي إلى فك عرى الإمبراطورية ، ولن ينتهي حتى تخضع إحدى السلطتين إلى الأخرى ، والمعلوم إن الشرق خضعت فيه الكنيسة إلى السلطة الزمنية للإمبراطورية الرومانية ، وأما في الغرب فقد أخذت الكنيسة تبحث عن استقلالها ثم أخذت تحارب دفاعاً عن سيادتها على الدولة ، وان عملية التوافق بين الكنيسة والدولة يحتاج إلى تعديلاً جوهرياً في المبادئ المسيحية فعلى سبيل المثال كانت نظرت الباباوات في السابق إلى الحرب بأنها غير مشروعة في جميع الظروف والأحوال، ولكن هذا الراي تغيربعد أن اعترفت الدولة بالكنيسة فأن الأخيرة أعلنت موافقتها على الحروب التي تراها ضرورية لحماية مصالح الدولة والكنيسة[12].كان من الأمور المهمة التي بدأت تواجه الكنيسة في علاقتها مع الدولة هو معرفة الإجابة على السؤال المتعلق بمعرفة (ما كان بالضبط لقيصر وما كان بالضبط لله) ، أي تحديد دائرة المجتمع السياسي الممثل (بالدولة و الإمبراطور) ودائرة المجتمع الديني المزود بتقاليده وقوانينه وتنظيمه الداخلي، وبالرغم من ان الكنيسة دانت بالجميل للإمبراطور قسطنطين فأنها في الوقت نفسه كانت تخشى التعدي عليها وان اعتقادها السائد بأن الإمبراطور باعتباره مسيحياً، فانه عليه الخضوع كالرعايا للقضاء الكنسي في الجوانب الروحية ، وهذا يعني ان التنافس بين السلطتين الروحية والزمنية سجلت له البداية من هذا الوقت وان الزمن وحده سوف يحدد أي السلطتين أعلى من الأخرى وأيهما أكثر كفاءة وقدرة على إدارة البلاد[13].يبدو إن المرحلة الأولى كانت فيها الغلبة للسلطة الزمنية التي كان يتولاها الإمبراطور قسطنطين ذلك إن الدور الذي لعبه قسطنطين في مطلع القرن الرابع كان متميزاً في علو شأن المسيحية حتى انه يمكن القول إن المسيحية ما كانت لها الشهرة بدونه فقد سمح للأساقفة بأن يديروا القضاء في المسائل الدينية وأعفى الكنائس من الضرائب ووهبها الكثير من الأملاك الإمبراطورية وسمح لها إن تتلقى الهبات ، بالإضافة الى ذلك فأن الإمبراطور قسطنطين وبعد عدت سنوات من اتخاذه مرحلة الحياد وعدم أثارة أصحاب الديانة الوثنية، فأنه منذ عام 317 ومن اجل التقرب من المسيحية محا من النقود الصور الوثنية، وفي عام 323 أصبحت الرسوم محايدة لاهي مسيحية ولا هي وثنية وفي الوقت نفسه شرع قوانين أعفت أملاك الكنيسة من الضرائب وأجازت للشخصيات المسيحية امتلاك الأراضي وجعل الكنيسة هي الوارثة لأملاك الشهداء الذين لم يتركوا ذرية ووهب أموالهم إلى المجامع الدينية المحتاجة إليها[14].كذلك بدأ قسطنطين ببناء عاصمته الجديدة عام 324م في قرية بيزنطوم بالاضافة الى اتخاذها موقع عسكري يمكن من خلاله مراقبة تحركات الفرس والبرابرة ، فقد ذكر إن دافع البناء كان اعتقاد قسطنطين بأن سياسته الدينية واعترافه بالمسيحية سوف تؤدي الى مواجهة صعوبات في روما أذ هي حصن الوثنية ودرعها الحامي وقد عرفت القسطنطينية بروما الثانية وأصبحت مدينة عظيمة تنافس روما القديمة[15].الامر الثاني الذي يستدل منه على غلبة السلطة الزمنية هي إدارة الملك قسطنطين للمجلس العام الكنسي عام 325 في نيقية بالقرب من عاصمة نقوميديا، والذي كان السبب الرئيسي في عقد المجمع الذي يعد الأول من بين المجامع العامة المسكونية والذي تجمع فيه رجال الكنائس المسيحية من كل أرجاء المعمورة هو ما أطلق عليه في التاريخ المسيحي بدعة اريوس، الذي عارض إلوهية السيد المسيح والثالوث المقدس ، ويذكر ان قضية الثالوث المقدس اخرجها عام 200القس مالقس تورتلينا [16]، ولم يحاول أحد مناقشة مدى صحة هذه العقيدة حتى زمن آريوس والذي بنى عقيدته على(أن الأب وحده الله والابن مخلوق مصنوع ، وقد كان الأب أذ لم يكن الابن وبذلك فأن الابن لا يسمو إلى الأب جوهراً وقدسية وأزليته)، أدت أفكاره إلى عقد مجلس بقيادة رئيس أساقفة الإسكندرية والشماس (اثناسيوس) ، وعدد من رجال الدين وأصدر الحرمان بحق آريوس عام 321 م ، وقد تدخل الملك قسطنطين عندما أرسل رسالة إلي بطريرك الإسكندرية ليعلن انزعاجه بقرار الحرمان والدعوة إلى مؤتمر عام لحل قضية الخلاف[17].أجتمع في مدينة نيقية 2048 أسقفاً وكانوا مختلفين في الأفكار حول العلاقة ما بين الله والمسيح وأمه مريم وبعد أن سمع قسطنطين كل المقالات أيد مقالة الاساقفة الذين كان عدهم 318 الذين يؤمنون بالوهية المسيح وعقد لهم مجلس خاص وجلس في وسطهم ودفع بسيفه أليهم وذكر (قد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا ما فيه قوام الدين)فبارك الأساقفة رأي الملك وطلبوا منه المساندة في نشر المسيحية[18]. قرر المجمع بعد ذلك مانصه (أن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قول بوجود زمن لم يكن أبن الله موجوداً فيه والقول انه لم يوجد قبل ان يولد وانه وجد من لاشيء ، أو من يقول أن الأبن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الأب وكل من يؤمن أنه خلق أو من يقول أنه قابل للتغيير.نحن

نؤمن بإله واحد ، وهو الأب القادر على كل شيء خالق الأشياء كلها ما ظهر منها وما بطن ، وسيد واحد وهو يسوع المسيح ابن الله المولود ...، غير المخلوق من نفس جوهر الأب ورسالته من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا نزل وتجسد ، وصار انساناً وتعذب وقام مرة ثانية في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات)[19].رفض هذا القرار خمسة من الأساقفة نقصوا في أخر الأمر إلى اثنين وحكم المجلس على هذين الأسقفين وعلى أريوس الذي لم ينحرف عن عقيدته أو يتوب عما صدر منه ، باللعنة والحرمان وتم نفيهم من البلاد كما صدر مرسوم إمبراطوري بإحراق كتب أريوس جميعها وأن إخفاء أي كتاب يعود له يعد جريمة يعاقب عليها بالإعدام[20]. وقد ترتب على المجمع عدة امور كان لها كبير الاثر على الديانة المسيحية في المستقبل ومن ابرزها :

1- لا يمكن اعتبار ما خرج به المجمع من قرارات يعبر عن رؤية أكثرية رجال الدين المسيحيين ، ذلك ان من حضر إلى المجمع كان تعدادهم حوالي 2040 من الأساقفة ومن مختلف المذاهب والعقائد والتي كانت مختلفة حول العلاقة بين الخالق(عز وجل) والسيد المسيح وأمه العذراء وأن الرأي الذي خرج فيه المجمع يمثل 318 أسقف والذين يؤمنون بإلوهية السيد لمسيح ولولا تدخل قسطنطين بجانبهم لم يحسم الموضوع لصالحهم[21] .

2- إن المجمع فرض آراءه باعتباره حكومة وجماعة رئيسية تحدد للمسيحيين أوامر الدين وعلى الكل الطاعة، راغبين أو كارهين وان تعاليم الدين تؤخذ من العلماء ورجال الكهنوت وان هؤلاء قولهم حجة حتى لو خالف النصوص وعلى الكل الطاعة ويبدوا ان هذه الافكار التي سيقت في المجمع الأول تركت آثار غير سليمة كان لها أثرهاالسلبي في تأريخ المسيحية[22].

3- أن السلطة الزمنية المتمثلة بالإمبراطور قسطنطين كانت هي صاحبة الرأي النافذ وأن قسطنطين الذي حتى ذلك الوقت لم(يعمد) كان رأيه المسموع من قبل رجال الدين وأختار فئة دون أخرى لأغراض شخصية فكان يريد تحقيق السلام الآني أكثر من البحث عن حل نقاش مستعصي وهذا تدخل كبير من قبل السلطة الزمنية في شؤون السلطة الروحية[23].

4- أن قرار الحرمان بحق المخالفين وحرق الكتب الغير مرغوب فيها من قبل المؤتمر ، كان له الأثر السيء في كبح الطرف المعارض للبابوية وأصبحت مثل هذه الأمور موافق عليها بصورة رسمية ومن قبل أهم محفل يشهده العالم المسيحي[24].

ثالثاً : موقع كنيسة روما من بقية الكنائس الأخرى(312-550).

بعد الأعتراف بالديانة المسيحية في بداية القرن الرابع الميلادي من قبل الإمبراطورية الرومانية ، كانت عدة كنائس لها أهمية كبيرة في التاريخ المسيحي ، وهناك وجهتا نظر عن الأسباب التي جعلت لهذه الكنائس أهمية فمن جهة كان هناك رأي يدعو إلى أهمية المقر الديني للكنيسة مستمدة من أهمية مركزه في الإدارة الإمبراطورية ، أما أصحاب وجهة النظر الثانية فأنهم يعدون أن أهمية المقر الكنسي تتوقف على قوة تقاليده الرسولية وأهمية منشأه ومؤسسه[25].ظهر على رأس الكنيسة خمسة بطارقة في روما والقسطنطينية وأنطاكيا وبيت المقدس والإسكندرية والذين يمكن مقارنتهم بكبار الرؤساء الإداريين في الإمبراطورية الرومانية وتبع كل من هؤلاء البطارقة مجموعة من رؤساء الأساقفة الذين يشمل نفوذ الواحد منهم عدة أسقفيات ، ثم الأساقفة الذين يشرف كل منهم على شؤون كرسيه الأسقفي واخيراً يأتي قس الأبرشية في القرية وهذا السلم الكهنوتي يشبه الى حد كبير سلم الوظائف الإدارية في الإمبراطورية الرومانية وبمرور الزمن أخذت هذه الكنائس تحصل على امتيازات من الدولة مثل حق الحصول على الهبات، والإعفاء من الضرائب والفصل في المنازعات التي تحدث بين المسيحيين وأخذت تزداد ثروة الكنيسة حتى امتلكت الأراضي الواسعة وان هذا التطور الذي حدث في الكنيسة وبمرور الزمن أدى إلى تحويل الكنيسة من منظمة بسيطة إلى هيئة وراثية ذات إدارة بيروقراطية مركزة [26].كانت هناك ثلاثة كنائس لها أهمية من بين الخمسة التي ذكرناها ، وهي(إنطاكيا والإسكندرية وروما) إذ إنها زعمت إن مؤسسها القديس بطرس سيد الرسل سواء قام بذلك بشخصه مثلما كان الأمر في روما وأنطاكيا أو نائبه الرسول(مرقس) مثلما جرى في كنيسة الإسكندرية ومن المعلوم إن المدن الثلاثة تعد من المراكز الإدارية الهامة في الإمبراطورية الرومانية ، ذلك إن إنطاكيا حاضرة إقليم الشرق الشاسع، والإسكندرية عاصمة مصر مقر الفكر الهيلينستي، وروما عاصمة الإمبراطورية الرومانية[27]. بعد بناء مدينة القسطنطينية كعاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية ، بدأ هناك تنافس جديد بين كنيستها والكنائس الاخرى وخاصة كنيسة روما ، بعد إن نقل إليها قسطنطين السناتو مقر الإمبراطورية أي إنها جمعت خصائص روما القديمة والجديدة ونقل إليها جانب من سلطة كنيسة روما حتى أن مجمع القسطنطينية عام 381 أعلن إن للأسقف هذه المدينة الصدارة بعد أسقف روما بأعتبارها روما الجديدة[28].أسلمت كنيسة القسطنطينة زمامها للسلطة الزمنية الممثلة بالأباطرة ، إذ غدا إمبراطور القسطنطينية يجمع بين الوظيفتين السياسية والدينية و يمثل ما أطلق عليه القيصرية البابوية(Casaropapism) بعد أن وضع أساس هذه السياسة قسطنطين منذ أعترافه بالمسحية ، و أتبع حلفائه الأباطرة ماقام به سابقا بالدعوة الى عقد مجامع دينية عامة للبحث في مختلف المشاكل التي تتعلق بالكنيسة والعقيدة المسيحية[29]. أصبح الوضع مختلفاً بعد الأنقسام في العالم الروماني الغربي بعد وفاة (ثيودوسيوس الأول 379-395 Theodosius I)) أخر ملك للإمبراطورية الرومانية الموحدة، أذ قسمت الإمبراطورية ما بين أبنائه (هونوريوس Honorius) في الغرب و(أركاديوس Arcadius) في الشرق ، وفي البداية كان يعد مجرداً أنفصال إداري إلا أنه كان ينذر بانقسام ما بعده توحد اذ حدث على ضوءه انقسام في الكنيسة لتصبح غربية رومانية وشرقية بيزنطينية , واصبح البابا يرأس الكنيسة الكاثوليكية في حين يراس بطريك القسطنطينية الكنيسة الارثودكسية الشرقية [30]، فساهم ذلك بتركيز هجمات القبائل البربرية على القسم الغربي وباتت تهدد كيان الإمبراطورية خاصة بعد أن عرفت كل نقاط ضعفها بعد أن كان عناصر الجرمان يعتمد عليهم في القوات الإمبراطورية ووصلوا إلى أعلى مراتب الدولة فبعد تولي هونوريوس مقاليد الحكم في الغرب،كان صبياً تحكم به القائد الجرماني(ستيليكو) وكان هذا قائد(القبائل الوندالية) وأستطاع من صد العديد من الهجمات التي قام بها القوط الغربيين والذين كانوا بقيادة (الآريك) [31]، غير أنه أعدم عام 408 بعد أن أتهم بمحاولة أغتيال للإمبراطور الأمر الذي مهد للقوط الغربيين بقيادة الأريك بمهاجمة روماعام 409 وعادو الكرة في آب 410 ليدخلو روما بعد أن لم يدخلها أي معتد منذ 800 عام وكتب في وقتها المؤرخ جيروم (من يستطع التصديق أن روما التي سيطرت على كل العالم هي الآن مسيطر عليها والتي بنيت على مكاسب ونهب كل الأرض هي الآن عرضة للنهب والسلب) ،وأستمر الوضع المتدهور لروما في القرن الخامس الميلادي أذ فقدت الإمبراطورية معظم أجزائها الغربية [32].أشتد خطر القبائل الجرمانية منذ منتصف القرن الخامس الميلادي وكان أشدها خطراعلى الإمبراطورية هي(قبائل الهون) في زمن ملكهم اتيلا، وأستطاع الرومان وبمساعدة القوط الغربيين تحت قيادة القائد الروماني اثيوس من هزيمتهم في المعركة الشهيرة شالون عام 451 والتي سميت معركة الأمم ، غير أن أتيلا عاد الكرة عام 454 حتى وصل روما فدخلها ولولا تدخل البابوية لم تنجو روما من أيدي الجرمان وكانت روما عرضة لهجوم أخر في حزيران 455 أذ هاجمها القائد الوندالي(جيسريك)الذي كان مسيطر

على شمال أفريقيا ، فسيطر عليها ولم يخرج إلا بعد تدخل البابوية واكتفى بأخذ أموال كبيرة من روما [33].شهد العرش الإمبراطوري الروماني في الغرب تدهور كبير ما بين عام 455 وحتى عام 476م ولم يعد للأباطرة أي دور وكان القادة العسكريون هم الذين يرشحون الأباطرة والذين كانت أعدادهم كبيرة في هذه الفترة وكان آخرهم (روميليوس أوغسطس) الذي أزداد تحكم القبائل الجرمانية في عرشه ، وكان آخرها قيام (أدو كار)بأبعاد روميلوس في 4 أيلول 476 فعد ذلك سقوط روما ونهاية الإمبراطورية الغربية و قام أدو كار بتقديم طلب لإمبراطور الشرق(زينو) بالأعتراف به حاكم على روما، أضحى الغرب ذو سلطة ضعيفة لا تستطيع أن تفرض سيطرتها على الكنيسة والدولة جميعاً الأمر الذي انعكس أيجاباً على كنيسة روما بعد أن وجدت قوتها في شخص أسقف روما الذي تحول كرسيه إلى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة في مختلف بلدان العالم الغربي[34].

رابعا: الشخصيات الدينية والنظريات التي عززت من نفوذ الكنيسة (312-550).

1- النظرية البطرسية وحق الزعامة لروما.أخذت السلطة الزمنية التي تمثلها الكنيسة تزداد بعد ان أخذ المسيحيون يستأنفون التزاماتهم نحو الدولة والمجتمع وان عليهم تحسين أحوالهم في الحياة الدنيا من اجل نيل الخلاص في الآخرة ، فبعد الإعتراف بالمسيحية بدأ المسيحيون يدخلون في الجيش بشكل كبير وأستطاع بعضهم الحصول على مراكز إدارية مهمة ذات مكانة عالية وفي كثير من المشاكل التي تواجههم اتجهوا الى حلها عند اساقفتهم دون الذهاب الى المحاكم المدنية، الأمر الذي أدى أن يضطلع أساقفتهم سلطة قضائية نالت اعتراف قسطنطين لتواصل عملها مع وجود المحاكم الدنيوية ، وبمرور الزمن كونت الكنيسة جهاز يديره الأسقف ،أصبح له مساعدين أطلق عليهم القساوسة للمساعدة في الشؤون الدينية والقسم الثاني يطلق عليهم الشماسة تكفلو بالشؤون الإدارية للكنيسة بالإضافة الى الشؤون الأجتماعية والقضائية[35].أن أنتشار المسيحية بين سكان المناطق المختلفة وسع من صلاحيات الأسقف الأمر الذي ادى الى تقسيم الأسقفية الى وحدات اصغر تسمى(الأبرشية)تحت رعاية قساوسة وقد أبقت الكنيسة نفس التقسيم الإداري للولايات حتى اصبحت كنائس الولاية تحت قيادة رئيس الأساقفة في عاصمة الإقليم وعلى رأس جهاز الأساقفة ياتي البطريرك والذي له حق الأشراف على سائر رؤساء الأساقفة في الأقليم وكان اسقف روما كغيره من الأساقفة ، إلا أنه أخذ يتمتع بسلطة تفوق الأساقفة الآخرين بأعتباره خلف القديس بطرس لتنشأ سلطة البابوات[36].ان كل هذه التطورات في المؤسسات الكنسية كانت بحاجة الى قوة دعم روحية كبيرة لكنيسة روما ، لذلك شاع في القرن الرابع الميلادي ماعرف بالنظرية البطرسية والتي جاء فيها " ان بطرس بأعتباره أبو الرسل قد عهد إليه السلطة العليا على الكنيسة والذي تقلد بدوره مكان الصدارة لخلفائه اساقفة روما والذين بحكم مركزهم يجب ان تكون لهم الزعامة على الكنيسة وعلى سائر الكنائس ، كما كان بطرس أمير للرسل الآخرين وأما الوثيقة التي بنيت عليها هذه النظرية فهي ما ذكر في الأصحاح16 العدد 18 التي تقول " انت بطرس وعلى الصخرة ابني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها " وفي العدد 11 " سأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السماوات ، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السموات[37].ومن الجدير بالذكر أن أول من دعا بهذه النظرية هو القديس(سيبريان) (248-258) والتي ذاعت وأنتشرت في الغرب خاصة بعد الاعتراف بالمسيحية، وعندما عقد مجمع سردينيا عام(343-344) لغرض استئناف قرارات المجامع الأقليمية الى اسقف روما ،عزز من ادعاء روما باعتبارها الحكم الأعلى للكنيسة وساهم بحل المشاكل في روما وأن ما يقوله اسقف روما يعد القانون الفعلي للكنيسة وعلى اثرها انتقل تاثير الكنيسة الى كافة النواحي الاجتماعية وشكلت مركز استقطاب لتشكيلات المجتمع الاوربي ولتقوم بدور هام في العالم المسيحي [38].

2- دور القديس امبروز (340-397) في تعزيز السلطة الكنسية .ولد أمبروز في مدينة تريفز عام 340 ، وكان في بداية حياته سياسياً أدار المناطق الشمالية في ايطاليا وكان مقره مدينة ميلان وبعد حدوث نزاع بين رجال الدين حول انتخاب رئيس اساقفة لمدينتهم تدخل للتحكيم ، فوقع عليه الأختيار ليشغل منصب رئيس اساقفة ميلان سنة 374 [39] .كان امبروز ممن نادى بسيطرة الكنيسة على الأمبراطورية ، إذ طالب بان يكون للكنيسة السيطرة على الأمبراطورية وان تمتع باستقلالها الكامل في الشؤون الروحية وبرز دوره في التصدي للامبراطورية في عهدي(ثيودوسيوس الأول وتالا بلاسيديا) الوصية على ابنها الأمبراطور فالنتين الثالث ، فقد أرسل رسالة الى فالنتين الثالث ذكر فيها(جرت العادة ان يحاكم الأساقفة الأباطرة وليس للأباطرة محاكمة الأساقفة..... وذكرأن الجزية لقيصر ذلك شيء لاننكره والكنيسة لله ...ومن ثم فلا تخضع لقيصر ..الامبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها)[40].وبالرغم من انه لم يعترض على واجب الطاعة للسلطة المدنية في القضايا السياسية الا انه اكد ان من حق رجال الدين توجيه اللوم الى السلطة العلمانية وطبق ذلك عملياً بعد أن رفض اقامة العشاء الرباني بحضور الإمبراطور ثيودوسيوس الأول باعتباره مسؤول عن قتل الأبرياء في مدينة سالوتيك بعد ان قام ابنائها بتمرد ضد الأمبراطورية ، كذلك فأن أمبروز أعتمد على وسيلة المنافسة والأقناع لأثبات أن الكنيسة هي الجهة الوحيدة المختصة بالمسائل الدينية بالنسبة لكافة المسيحيين بما فيهم كافة الحكام حتى الأمبراطور بأعتباره أبن الكنيسة[41].

3- القديس أوغسطين ونظرية مدينة الله.ولد أوغسطين في مدينة(تاكوستا) في نوميديا (الجزائر الآن) وكان والده وثني وامه مسيحية ، درس الخطابة في قرطاجة واعتنق المانوية لمدة عشر سنوات بعدها انتقل الى المسيحية وعمد عام387 على يد القديس امبروز وسكن في افريقيا ليؤسس النظام الديري حتى أصبح قساً عام 391 ثم أصبح أسقف مدينة (هبو) حتى وفاته عام 430 له عدة مؤلفات منها (الأعترافات والرد على المانويين) و(الرد على البدع المسيحية) و(مدينة الله) ويعد كتاب مدينة الله اهمها والذي استندت عليه البابوية في صراعها مع الأمبرطورية أذ بدأ بتأليفه سنة 413 وفرغ منه عام 426، قام بتاليفه بعد الهزيمة التي لحقت بروما على يد الأريك القوطي عام 410 بعد أن اكتسح الجرمان العالم الروماني ونهبوا مدينة روما[42] .مثل سقوط روما بيد الجرمان حدثاً هز كيان الامبراطورية الرومانية ، فكان اول حدث في تأريخ روما بهذا الحجم واثير حوله الكثير من القضايا والنضريات واستغله الوثنيون والمشككون في العقيدة المسيحية ، إذ عد هؤلاءأن سبب الهزيمة غضب الآلهة الوثنية لترك الدولة عبادتها ، وكانت الفكرة التي استند عليها هؤلاء ان المسيحية تدعو الى الانسحاب من الحياة الدنيا والاكتفاء بالعبادات وخاصة الديرية والتي نتج عنها ابعاد المواطن عن خدمة الدولة، والفكرة الثانية ان مصير روما كان دائماً مرتبط بالآلهة وذو علاقة بعبادة الرومان لها وان العقاب على روما بسبب ترك تلك العبادات[43] .قدمت هذه الأعتراضات من قبل الشريحة البارزة من الوثنيين الى الزعيم الوثني فولوسيانوس الذي قدمها الى الحاكم الروماني ماركلينوس في شمال أفريقيا عام 412 والذي حولها بدوره الى رئيس اساقفة هبو والذي طلب من قسطنطين الأجابة عليها واستدل الزعيم الوثني فولوسيانوس بالقول الماثورعن السيد المسيح (لا تقابل الآذى بالأذى.. ومن ضربك على خدك الأيمن فدر له خدك الأيسر..... من أجبرك على السير معه ميلاً فسر معه ميلين)كدليل على ضعف ماتذهب اليه العقيدة المسيحية[44].

ورداً على هذه الأفكار كتب أوغسطين كتاب مدنية الله واهم الأفكار التي جاء فيها :-

1- أن قضية الفضائل التي يعتقد البعض انها تنتقص من شان العقيدة المسيحية موجودة في كل المعتقدات حتى الوثنية منها فقد امتدح سالوست الرومان لأخذهم بقاعدة العفو عن المقدرة وكذلك جاء في كتابات خسروا أمتادحه لقيصر لآنه كما قال أعتاد أن لاينسى كل شيء سوى الأعتداء على شخصه ، وعندما نحتكم الى تأريخ الروما نجد ان تلك الأعتبارات لم تسيء الى الدولة وليس هناك وصايا في الأنجيل تحتم على المسيحين القاء اسلحتهم جانباً أو رفض الخدمة العسكرية ، وأن الأنجيل لم يمنع اي شخص سخر نفسه لخدمة الدولة ولكن هاتو لنا أناس كما ينبغي ان يكون الناس حسب اوامر الله ثم قولوا بأن ذلك يتنافى مع الدولة[45].

2- ان قضية دمار روما مرتبط بقادتها لأنهم مسيحيون، يعد أفتراء كبير ذلك أن سبب الدمار هو انجراف المجتمع الروماني في الاثم والشرور فالأحرى بالمتشككين لوم الوثنية المحتضرة وليس المسيحية الناشئة ، ان هدف المسيحية الحفاظ على المجتمع البشري و بناء مجتمع فاضل وليس على الدولة ان تخاف من تحقيق هذين الهدفين[46].

3- إذا أجاز ان تتحطم مدينة الأنسان المدعومة من القوة المادية فأن مدينة الله لا تزال قائمة ، وان الشر اذ قام بالقضاء على الجسد فأنه لا قدرة له على الروح وان على الكنيسة ان تسع عضويتها للارواح السماوية والأرواح الارضية وللصالحين الذين عاشوا في ظل المسيحية ويبدوا ان البابوات استغلواهذه النقطة وتبنو الفكرة في الشؤن السياسية واقامت عليها عقيدة الدولة الدينية المتمثلة في الكنيسة التي تستمد أفكارها من السلطة المستمدة من الله[47].

4- تبنى قسطنطين مواقف أباء الكنيسة من أمثال (القديس أمبروز والقديس حنا كرسيوشوم بعلاقة الكنيسة بالدولة والفرق بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية وباستقلال كل منها عن الاخر وبامكانية تعاونهما على اساس التفوق المعنوي للسلطة الروحية وان الكنيسة هي الأعلى وان حكمها وقضاؤها ممتد في الكون ولا يحدد بشعب معين عكس ما تتمتع به الدولة من حقيقة متغيرة مؤقتة مهيأة للزوال عندما تأتي مملكة الله ، وأن الكنيسة ذات نظام مطلق يتمتع بالأبدية للمدنية السماوية وان مملكة المسيح كشفت عن نفسها لأول مرة في الشعب اليهودي ثم في الأمبراطورية المسيحية المنتصرة ، وما التاريخ الى صراع بين مملكة الرحمن ومملكة الشيطان وان النصر سوف يكون حتماً لمملكة الرحمن فلا سلام ولا خلود إلا في تلك المملكة[48].

5- من أهم الافكار السياسية التي جاء فيها قسطنطين المنادات باستخدام الأكراه والقوة لأجبار المنشقين عن الكنيسة للعودة اليها ،عندما يستخدم هؤلاء القوة من أجل القضاء على الآخرين مثل ماحصل في التعامل مع قضية المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكيةالذين يطلق عليهم الدوناتية بعد أن اصدر الإمبراطور(ماركلنوس) قرار ضد الدوناتية متهما اصحابها بأقامة الأجتماعات العامة فصادر دور عبادتهم وإعطائها للكاثوليك وعندما ردوا بالعنف دعى قسطنطين السلطات لمطاردتهم بقساوة بعد ان كان يدعوألى التسامح معهم ومعالجة مشاكلهم عن طريق المنطق الديني ، وبني على هذا التطور ان القوانين الطبيعية للامبراطورية أمر مسموح به للمساعدة في إعادة الوحدة المسيحية لمكانتها ، وقاد هذا التحول الى استخدام القوة المفرطة وعدم التسامح الديني[49].

6- اثير الجدل حول المقصود بالمدينتين التي ذكرهما قسطنطين ، فرجال الدين المسيحيين أصروا ولمدة طويلة في صراعهم مع القوى العلمانية على ان المقصود بالمدينتين الدولة العلمانية ودولة الكنيسة غير ان العلمانيين ذكروا بان المدينة الأولى تعني مدينة الأنسان والمدينة الثانية تعني مدنية الله أو مدينة السماء[50].

4- ليو الأول (Leo the Great (440-460).

يعد ليو الأول من البابوات الثلاثة التي اطلق عليهم لقب الكبير ولم تكن ولادته في روما ، ولد في مدينة توسكاني وبعد شهرته أصبح واحد من اهم سبعة شماسين عام 430 في روما،عرف في هذا الوقت خارج روما فكانت له علاقة مع بلاد الغال، أذ أرسل من قبل الأمبراطور فالنتين الثالث االى بلاد الغال لوقف النزاع بين القائد العسكري للأقليم أبنوس ورئيس القضاة البنوس ودلت هذه البعثة على اهلية وذكاء وقدرة الاسقف ليو وثقة الأمبراطور به وعندما توفي البابا زيكونس الثالث في 19 أب 440 كان ليو في بلاد الغال فأختير خلفاً له في 29 أيلول 440 ليحكم الكنيسة لمدة 21 عاماً[51].

بلغت خطبه الدينية 96 وعدت من أروع الخطب في تأريخ الكنيسة ، ذات أسلوب رائع ،أذ عد أستاذ الأسلوب الفريد في اللاتينية وقام بتطوير علم اللاهوت وتقديم مجموعة كاملة من قوانين علم اللاهوت الكاثوليكي، ومعه وصل العصر الذهبي لآباء الكنيسة الى قمته [52]. كانت للبابا ليو علاقة مميزة مع الأمبراطور والأقاليم المجاورة ونظرا لنفوذه الواسع فقد طلب من الأمبراطور فالنتين الثالث اصدار مرسوم سنة 445م للأشادة بالرسالة البطرسية وعلى ان يصدر من البابوية وله مفعول القانون، وان على السلطات الرومانية ان تحاسب اي رجل دين من السلك الكهنوتي لايلبي الدعوة للحضور الى المحكمة البابوية عندما يطلب منه ذلك ومن الامور التي دلت على قوة شخصيته في عام 450حضور الأمبراطور فالنتين الثالث مع زوجته أحد المواعظ الدينية التي كان يلقيها البابا في الكنيسة[53].

كان له دور مميز عندما غزيت روما عام 450، إذ قام بالتفاوض بصورة شخصية مع الملك الهوني اتيلا وألتقى به في مينكو وحصل منه على وعد بالأنسحاب من إيطاليا وبعقد مفاوضات مع ألأمبراطور ، وفي عام 455 قام بعمل مماثل عندما غزا الوندال روما بقيادة (جنسبرك) فحصل على ضمان بعدم الأعتداء على المواطنين وهذا يدل على مدى السلطة الأخلاقية والدينية التي تمتع بها البابا في الميدان الدنيوي[54].

5- البابا جيلاسيوس ونظرية السيفين

كان البابا جيلاسيوس أفريقي عاصر الأحداث التي كانت تعانيها روما بعد الخلاف بين القائد الجرماني(أدو كار) الذي سيطر على روما وأعترف به إمبراطور الشرق زينو في عهده وبين القائد (ثيودريك) زعيم قبائل القوط الشرقيين والذي دفع به إمبراطور الدولة الرومانية في الشرق لكي يضعف به قوة أدو كار وفعلاً سيطر ثيودريك على روما عام 492 وكانت هذه الأحداث مناسبة لكي يطرح البابا فكرته على الإمبراطور أناستاسوس (491-518) والذي شهدت مدة حكمه صراعات دينية ومحاولات للقضاء على الأريوسية فطلب منه الدفاع عن الكاثوليكية والقضاء على ماسماها الهرطقات في الشرق[55].

إن أهم ما جاء في رسالة البابا هو تحديده لصلاحيات الدولة بالنسبة للكنيسة فذكر إن الله(سبحانه وتعالى) له ملك الدين والدنيا وبيده سيفان أحدهما يمثل سلطانة على الأرواح والآخر يمثل سلطانه على الأبدان ، وان الأول قائم على الحكومة الدينية ،والثاني قائم على الحكومة الزمنية وبعد انتشار المسيحية في روما على يد القديس بطرس سلمه الله (سبحانه وتعالى) السيفين فأعطى بطرس سيف الأرواح للبابا وسيف الأبدان للإمبراطور ولما كان الأول بطبيعة الحال متفوق على الثاني فأن هذا يدل على تفوق البابوية على الإمبراطور وذكر " لقد شاءت أرادة الله و قدرته ألا يخضع رجال البابوية للقانون المدني بل يجب أن يخضعوا للقساوسة والأساقفة فقط " وإنه في حالة محاكمة رجال الدين فأنه يجب أن يحاكموا في محاكم كنسية خاصة[56].

إن هذه الأفكار التي دونها كتابتا البابا جيلاسيوس الأول و كانت سابقاً يشارلها لتحديد العلاقة بين القيم الخلقية والأمور الروحية والخلاص الأبدي والتي عدت من اختصاص الكنيسة والأمور الدنيوية اليومية والمحافظة على السلام والنظام وإدارة الحروب وهي أمور تعد من اختصاص الحكومة المدنية ، عدت رسمياً مسجلة بأسم البابا وأطلق عليها نظرية السيفين [57].

وفي الصراع الذي دار بين باباوات الكنيسة الكاثوليكية وملوك أوربا ، غدت هذه النظرية الأساس والجوهر الذي أنطلق منه الباباوات لتحديد سلطة البابوية ، وأنها تدل على سمو المقام البابوي على المركز الإمبراطوري بأعتبار أن البابا النائب الأول لصاحب الشريعة وخليفة السيد المسيح وله الولاية العامة على عباد الله وأن الباباوات مرجعيتهم وانتسابهم إلى السيد المسيح وعلى الإمبراطور واجب إتباع الاتجاه الديني وليس العكس[58].

6- القديس بندكت وتنظيم الحياة في الاديرة 543- 540) St Bendict)ولد القديس بندكت في مدينة نورسيا الإيطالية لعائلة غنية من النبلاء وفي طفولته انتقلت عائلته إلى روما فدرس في مدارسها وكان شغوفاً بالدراسات الأدبية غير أنه حصل تحول في حياته بعد أن قرأ الأناجيل وتمعن فيها فترك دراسته وبيت والده وغادر إلى جبل في إحدى القرى على بعد 40 ميل عن روما وأصبح له أتباع كثيرون وكان مقره الديري في مرتفعات كاسينو ومن الأمور التي مارسها في ديره هي عملية تصليح آنية خزفية كسرت والذي لم يرق إلى جماعة من الرهبان فتركوه بعدها قرر الرحيل إلى منطقة جبلية يسكنها قس يدعي (رومانس) وعاش هناك لمدة ثلاث سنوات فزاد أتباعه وقام ببناء العديد من الأديرة[59].كانت الحياة الديرية منتشرة بشكل كبير قبل القديس بندكت وساعد بقيامها الظروف العصيبة التي تعرض لها المسيحيون نتيجة معاداة الإمبراطورية الرومانية مما دفع بالكثير من معتنقي الدين إلى اللجوء لقمم الجبال والصحاري لعبادة الله والحياة بطريقة التقشف والتأمل في ذات الله أملاً في التخلص من الآثام والذنوب ، غير أن هذه الأمور عدت لدى الكثيرين تمثل حالة من اليأس والهروب من مواجهة مشاكل الحياة والانطواء على النفس وعدم مواجهة الحيات في خيرها وشرها[60]. جاء بندكت بفكر جديد لتنظيم الحياة الديرية ليجمع بين حاجات الراهب الدنيوية الى جانب التزاماته الروحية فكتب في عام 529 القواعد الشهيرة للنشاطات اليومية للأديرة والتي أهم ماجاء فيها جعل الدير ورشة عمل يمكن إن تمارس فيها الأعمال الفردية ولا بد للدير من أن يضم مساحة من الأرض للقيام بالحاجات الضرورية حتى يمكن للرهبان مزاولة أعماله الزراعية ورعاية المواشي وإعداد الملابس وبمرور الزمن يمكن أن يعتمد الدير على نفسه ولا يحتاج للعالم المحيط به ، أضف إلى ذلك أنه أوجد في كل دير نواة لمكتبه ومكان يمكن فيه نسخ الكتب ، فتحولت الأديرة الى مكان مهم للنسخ الكتب والتأليف ودراسة الكتب الأدبية واللاهوتية والقانونية [61].

أكد بندكت على أهمية منصب مسؤول الدير وإن على من يتقلده أن يكن الاحترام لتلاميذه وأن يعلمهم التعليم المزدوج ويضمنه كل ماهو صالح وسليم بالقول والعقل ، وعليه أن يعرف جيداً أن البطالة عدوة الروح وعليه أن يقسم الساعات في اليوم للعمل اليدوي وأخرى للقراءة والدراسة ، وأن على أهل الدير التضامن في كل الأعمال ، حتى أن خدمة المطبخ لا يعفى منها أي أحد إلا أذا كان مريضاً ويجب أن يحوي الدير كل ما هو ضروري من ماء وطاحونة وحدائق ومشاغل للممارسة المهن في داخل أطار الدير[62].

خامسا: أثر الأنقسام الكنسي في أضعاف السلطة الكنسية وتدخل الاباطرة(312-550):

على الرغم من أن القرن الرابع الميلادي والقرن الخامس الميلادي شهدا قوة السلطة البابوية وبداية محاولة اخذ زمام الأمور من السلطة الدينية غير ان الكنيسة نفسها شهدت انقسامات عنيفة ادت في العديد من الأوقات لنزاع بين الأطراف المتنازعة على كرسي البابوية ومن المعلوم ان اسقف روما كان يقوم على اساس الأنتخاب بين رجال الدين في الكنيسة نفسها ولم يكن هناك أعتراض او معارضة قبل عهد قسطنطين ولم تكن في زمن الأضطهاد محاولات فاضحة ومشينة للوصول الى كرسي البابوية وقد كانت الامبراطورية الرومانية تنظر باهتمام لمراحل الصراع والتدخل في الوقت المناسب[63].

كان الامبراطور الروماني جوناتيوس الذي تولى عام 350 ، يدين بالاريوسية في نفس الوقت كان البابا ليبروس الذي تولى عام 352 على المذهب الاثنايوسي فكان ذلك مثار نزاع مع الامبراطور الذي طلب من الأساقفة في بلاد الغال بإدانة الأثنايوسية [64].

أستمر الخلاف بين البابا والإمبراطور ففي عام355 أرسل البابا الأسقف ايزوبيس ألى ميلان إذ كان هناك اجتماع للأساقفة للتوقيع على مرسوم لدعم الأثنايوسية غير ان الإمبراطور تدخل عسكرياً وطلب من الأساقفة أدانة الأثنايوسية وقام بإبعاد ايزويس والأسقف لوسيفر أسقف كالارد وأسقف ميلان وحاول البابا إرسال مبعوث للتفاهم مع الإمبراطور غير انه أبعدهم أيضاً وجعل أوكزيتيوس الآري أسقف على ميلان الأمر الذي جعل البابا يحمل كثيراً في خطبه على الإمبراطور حتى نعته (نبوخذنصر) فقام الإمبراطور بإبعاده عن روما وبعد أن أقسم الأساقفة بعدم أطاعة أي شخص غيره ، قام عدد من رجال الدين بأختيار القس فيلكس بعد تأييد الإمبراطور ليتولى منصب البابا [65].الامر الثاني الذي كان مدار نزاع في عهد البابا دامسوس ،الذي أختير بابا في تشرين الاول عام 366 من قبل الأغلبية وكان في السابق من اتباع فيلكس غير ان هناك من عارضه من الأساقفة الذين أختارو الأسقف اورزينوس لمنصب البابا وكان هؤلاء من الموالين للبابا السابق ليبروس ، الأمر الذي أدى إلى أندلاع فوضى وتمرد سقط فيه العديد من القتلى ، ولم يحسم الوضع حتى تدخل الإمبراطور فالنتين أذ أختار دامسوس وأبعد أورزينوس عام 367 ، ولم يسمح له بالدخول الى روما ومع ذلك لم يوقف معارضوا البابا دعواتهم بإبعاده أذ قدموشكوى ضده الى المحكمة الإمبراطورية بتهم مشينة ، غير أن الإمبراطورأسقط التهمة عنه بعدها أجتمع مجمع كنسي يضم 45 قس واصدر عقوبة الحرمان ضد متهمي البابا بالخيانة دافع دامسوس بشكل كبير عن العقيدة الكاثوليكية من خلال عقد مجمع كنسي في روما عام 368 وكذلك عام 369 كذلك ارسل ممثلاً له ليحضر مجمع القسطنطينة عام 381 [66].في عام 418 حدث أنقسام آخر على من يتولى كرسي البابوية فبعد أن أختير بونفيس الأول لمنصب البابا من أكثرية الأساقفة كان هناك عدد من رجال الدين وخاصة الشماسة قرر أنتخاب الأسقف اولاليوس لمنصب البابا وقاموا بتمرد ضد البابا بونفيس ،وفي الوقت نفسه كان حاكم روما سيماكسوس من المعادين للبابا بونفيس فكتب للإمبراطور هونوريوس بعزله، وحصل منه على تثبيت اولاليوس

بمنصب البابا وابعاد بونفيس الأول غير ان أتباع بونفيس أحتجوا عند الملك وقرروا الدعوة الى مجمع كنسي في رافانا للبت في من يستحق البابوية ، ولم يتوصل المجلس الى قرار وأجلت القضية الى ستة أشهر وطلب من الاثنان ترك روما وعدم الدخول لها واديرت من قبل اكليوس قس مدينة سبوليتو وفي 18 أذار 419 عاد أولاليوس مخالفاً قرار الأبعاد وقام أتباعه بفوضى داخل روما فتدخلت القوات الإمبراطورية وقامت بإبعاده وعادت قيادة روما دينياً الى أكليوس ، وأثر ذلك أعترف الامبراطور بالبابا بونفيس وقلده منصب البابوية[67].أنتخب الأسقف سيماكوس(498-514) من قبل رجال الدين في روما لمنصب البابوية في 22 تشرين الثاني 498 وأستحسن الأنتخاب من قبل عدد من مجلس الشيوخ في روما ، غير أن هناك أقلية من رجال الدين يساندهم عدد من أعضاء مجلس الشيوخ رفضوا البابا الجديد وأختاروا الأسقف لاورنتيوس كبابا وكان ذلك في كنيسة سانتا ماريا ويبدو أن جماعة لاورنتيوس أسندت من قبل الأعضاء الاغنياء من مجلس الشيوخ ، وبعد تمسك كل طرف بأحقيته رفع الأمر الى الملك القوطي ثيودريك حاكم أيطاليا والذي قرر لصالح سيماكوس وخضع لذلك البابا المعارض لاورنتيوس وبعد مدة قدم جماعة من القساوسة لائحة اتهام ضد البابا امام الملك[68].طلب المعترضون من الملك التدخل لحل الخلاف ، فطلب من البابا الحضورأمامه،وفعلاً ذهب البابا الى الملك وعلم بالأتهام الموجه اليه وفضل أن يكون الملك هو الحاكم واثر ذلك طلب الملك ان يعقد مجمع للنظر في الأتهام على ان يبعد البابا ويحل محله أسقف آخر لإدارة روما فوافق الباباعلى عقد المجمع ورفض التخلي عن منصبه وبقي الوضع معلق حتى تموز عام 502 ، ذلك أن البابا أعلن انه سوف يقبل ان يدافع عن نفسه امام المجمع في حالة ابعاد الأسقف بيتر الذي كان مكلف من قبل الملك لإدارة روما ، ولقد وقع مع البابا أغلبية رجال الدين ورفعوا ذلك الى الملك ، ولكن الملك رفض ذلك وأصر على حضور البابا أمام المجلس وعندما قرر البابا الذهاب، كمن له عدد من أتباع لاورنتيوس وحاصروه وقتلوا عدد من رجال الدين فعاد الى مكانه ولقد وعد الملك بتأمين الحماية له للحضور ولكنه رفض لثلاث مرات ،وبقي الوضع لمدة ثمانية أشهر بعدها قرر المؤتمر عودة البابا لموقعه وعلى المعارضة الخضوع له غير ان المعارضة لم تقتنع بذلك ، وفي أثناء مؤتمر رجال الدين أعلن البابا انه بعيد عن التهم المنسوبة إليه ، وحضر المؤتمر 75 أسقف من اساقف ميلان ورافانا ، وفي 6 تشرين الثاني عام502 صدر مرسوم يعتبر قانون عام 483 الذي ينظم أدارة أملاك الكنيسة باطل وأصدر سماكوس مرسوم جديد بأن من حقه إدارة الأملاك وبيعها . ولم يقبل ثيودريك بقرارات المجمع الكنسي الأمر الذي شجع المعارضة بقيادة لاورنتيوس على أشعال الأزمة والتي أستمرت أربعة سنوات ، وأخيراً تدخل اسقف الأسكندرية ديوسكورس الذي ذهب كوسيط من قبل البابا إلى الملك ثيودريك وأقنعه بالتخلي عن مساندة لاورنتيوس وفعلاً قام الملك بتحجيم دور لاورنتيوس حتى أبعده عن روما وبقي سماكوس يدير سدة البابوية بدون مشاكل[69] .في عهد البابا بونوفيس الثاني وهو أول بابا ينحدر اسلافه من الجرمان والذي خدم الكنيسة في روما لمدة طويلة وكان له تأثير كبير في زمن البابا فيلكس الرابع و البابا فيلكس الخامس وتم اختياره من قبل الاخير بعد أن جمع رجال الدين وذكر لهم خوفه على البابوية ومن قيام نزاع وخلاف بين روما والقوط وكان ضمن المجتمعين عدد من أعضاء مجلس شيوخ روما وان من يخالف ذلك يعاقب بالحرمان الكنسي وبعد موت البابا وتولي بونوفيس رفض حوالي 170 أسقف ذلك وأختاروا دوسكورس بعد أن شعر هؤلاء ان البابوية سوف تقع تحت تأثير القوط وملكهم أتاله الذي ساهم جده بنزاعات سابقه ومحاولة فرض البابا[70].

تقلد الأثنان المنصب في 22 أيلول عام530 وكان بونوفيس في كنيسة باسليكيا ودوسكورس في كنيسة لاترين ولذلك دخلت روما في قضية جديدة من الخلاف غير أن دوسكورس مات بعد 24 يوم وترك السدة البابوية لمنافسه ، قام بونفيس بالدعوة الى مجمع كنسي ودعا الى التسامح مع الأساقفة الذين اعلنوا تاييدهم لدوسكورس وفي عام 531 دعا الى مجمع ثاني في كنيسة القديس بطرس والذي طالب فيه بمنحه تعيين خلفه واشترك العديد من الأساقفة معه في هذا الموضوع ، ولم تتخلص البابوية من قبضة القوط الشرقيون الذين سيطروا على ايطاليا فقد كان لاينتخب البابا ولايقر في كرسيه حتى يوافق الملك القوطي وفي ظرف عشر سنوات فأن أكثر من ستة بابوات تداولو كرسي البابوية وبقي الوضع على ماهو عليه حتى انهارت دولة القوط الشرقيون عام 552 بعد ان تعرضت لغارات عديدة من الأمبراطورية البيزنطية منذ عام 536 [71].

الخاتمة

تعد المرحلة التي تلت الأعتراف بالديانة المسيحية مرحلة مهمة من مراحل الصراع والتنافس بين السلطتين الزمنية والروحية ويبدو أن الظروف السياسية والتدهور والضعف الذي بدأت بوادره في الإمبراطورية الرومانية منذ ذلك الحين ساهم في أعطاء دور للمسيحيين ومحاولة كسبهم بعد الازدياد الذي شهده أتباع الديانة المسيحية وأن الإمبراطور قسطنطين كانت دوافعه سياسية أكثر منها دينية ومحاولته السيطرة على أتباع الكنيسة دلت على ذلك خاصة في مجمع نيقية عام 325م وما بعدها .

دخلت الكنيسة في مرحل جديدة بعد الاعتراف ، ففي السابق كانت تمثل جهة المعارضة ولمدة ثلاثة قرون وشعارها يتمثل بالمساواة والرحمة والعدالة ، وفجأة وجدت نفسها عليها الدخول إلى مؤسسات الدولة القائمة على الوثنية ، وأن من الصعب التوافق بين الكنيسة والدولة ومعرفة حدود المجتمع الديني الذي أعتمد على المبادئ السماوية والمجتمع المدني الذي تمثله الدولة الزمنية وشهدت هذه المرحلة التنافس بين السلطتين فكلما كانت الدولة الزمنية ضعيفة استغل ذلك رجال الدين في تعزيز مواقعهم في الدولة وكلما زادت قوة الإمبراطورية بسبب الضعف في السلطة الزمنية ويمكن ملاحظة ذلك من خلال عقد مجمع نيقية ومحاولة قسطنطين فرض رأيه على رجال الدين الآخرين ، وما ترتب على ذلك من عدم الأخذ بالرأي في الأمور الدينية وما ترتب عليه من انقسام ديني بين الأريوسية والأثنايوسة.يبدو أنه ليس لروما ذلك الموقع المهم الذي سمح لها بعد مراحل من اعتلاء كرسي البابوية وأن شأنها شأن الكنائس الأربعة الأخرى التي ذكرناها من المكانة ، غير أن الوضع السياسي المتقلب في الغرب وتدهور الإمبراطورية الرومانية ومن ثم سقوطها وتسلط القبائل البربرية على أوربا ساهم بترك فراغ سياسي وديني أستطاعت الكنيسة من ملأه وزيادته مع الزمن خاصة في أيام الأزمات التي تعرضت لها روما ودور البابوات في أبعاد الاعداء عنها والتفاوض عوضاً عن رموز السلطة الزمنية ساهم مع الزمن بأن تكون الصدارة في الغرب لكنيسة روما وكرسي البابوية.لم يكن لكنيسة روما أن تتبوأ هذه المكانة من بين الكنائس الأخرى لولا وجود شخصيات دينية أسست القاعدة لأتباعها ووضعت النظريات التي تدعي غلبة الجانب الروحي وأن على السلطة الزمنية إطاعة ذلك مدعومة بالروايات المنقولة عن السيد المسيح (ع) وأتباعه الحواريين ولم تتوانى الكنيسة في الدخول بمناقشات وسجالات مع رجال السلطة الزمنية لأثبات أحقيتها في ذلك ففي هذه المرحلة ظهرت النظرية البطرسية بقوة ونظرية مدينة الله ونظرية السيفين ونظرية بندكت في تنظيم عمل الأديرة وكان لهذه النظريات الأثر الكبير ليس في تلك المرحلة بل في كل مراحل العصر الأوربي الوسيط. أن الأنقسام الكنسي الذي شهدته المرحلة من خلال التنافس على كرسي البابوية ، ساهم في أضعاف مكانة البابا وزيادة تدخل السلطة الزمنية في الأنقسام والأستفادة

من ذلك لوقوف الى جانب طرف على حساب طريق آخر ، وأنعكس ذلك على كرسي البابوية الذي أستعان في كثير من الأحيان بالإمبراطور أو من يمثله لحل القضية

المصادر والهوامش

1. رستو فتزف ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، ج1، ت: زكي علي ومحمد سليم ، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ،ص ص 609-610.
2. محمود سعيد عمران ، تأريخ أوربا في العصور الوسطى ، بيروت، دار النهضة العربية ، 2006، ص ص44-45.
3. رستو فتزف ، المصدر السابق ، ص ص 610-611.
4. TheDocument of the Edict of Milan , gbgm- umc. Org / omw /bible Milan. Stm ; www. Ctlbirary. Com /ch/1990.
5. سعيد عبد الفتاح عاشور ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ص37.
6. محمود سعيد عمران ، المصدر السابق،ص48.
7. سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص37.
8. ديورانت ، قصة الحضارة ، ج11،ت: محمد بدران ، (القاهرة ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ط3،1973) ، صص387-388.
9. سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر السابق، ص38.
10. ديورانت ، قصة الحضارة ، المصدر السابق ، ج11 ،ص388.
11. جورج نتباين ، تطور الفكر السياسي ، ت: حسين جلال العروسي ، مصر ، دار المعارف ،1999، ص169.
12. جان جاك شوفاليه ، تاريخ الفكر السياسي ، ت: محمد عربي صاحيلا ، بيروت ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ص147-148.
13. المصدر نفسه ، ص149.
14. ديورانت ، المصدرالسابق ،ج11، ص388 ص390.
15. Jerry Manas , Lessons From the Rise and Fall of the Roman Empire, London 2005,p36.
16. www.early Church in the Roman Empire , F.F .Bruce , The Early Church in the Roman Empire .
17. محود أبو زهرة ،محاضرات في النصرانية ، القاهرة، دار الكتاب العربي ، 1961، ص ص 120-124.
18. . ديورانت ، المصدرالسابق ،ج11، ص 390.
19. محمود أبو زهرة ،المصدر السابق ، ص ص 125-126.
20. ديورانت ، المصدرالسابق ،ج11، ص ص 394-396.
21. محمود أبو زهرة ، المصدر السابق، ص127-129.
22. السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، بيروت ،دار النهضة العربية، 2006،ص150.
23. محمود أبو زهرة ، المصدر السابق ، ص129.
24. .
25. ديورانت ، المصدرالسابق ،ج12، ص ص 395-397.
26. السيد الباز العريني ، المصدر السابق ، ص154- 156.
27. سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر السابق ، ص ص47-48.
28. السيد الباز العريني ، المصدر السابق، ص ص157-158.
29. Jerry Manas , op. cit.p36.
30. سعيد عبد الفتاح عاشور ، تأريخ أوربا في العصور الوسطى ، ص48 .
31. رأفت عبد الحميد ، الفكر السياسي في العصور الوسطى ، القاهرة ، 2002، ص19
32. Elder ,Cushing , History of the Church of God From the creation to A.D. 1885, New York. ChXII.p112.
33. عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى الأوربية ، بيروت ، 1967 ، ص ص48-51.
34. Haycse.A , Apolitical and Social History of Modern Europe. New York,1944.p128.
35. عادل زيتون ، العلاقات السياسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ط1، دمشق ،1980، ص106.
36. ج كولتونن، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ت:جوزيف نسيم ،القاهرة ، 1967، ص ص186-188.
37. نور الدين حاطوم ، تاريخ العصر الوسيط في أوربا ، دمشق ، دار الفكر ، 2005، ص ص 65-67.
38. محمود سعيد عمران ،المصدر السابق ، ص ص 97-98.
39. السيد الباز العريني ، المصدر السابق ، ص ص158-160.
40. محمود سعيد عمران وآخرون ، النظم السياسية عبر العصور ، بيروت ، دار النهضة العربية ،1991، ص169.
41. كرم يوسف ، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصور الوسطى ، دار المعارف ، مصر ، 1965 ، ص ص 33-34.
42. جورج هسباين ، المصدر السابق، ص257.
43. WWW.Encyclopedia of Catholic , Augustine
44. محمود سعيد عمران وآخرون ،النظم السياسية ن ص ص170-171.
45. عبد القادر أحمد اليوسف ، المصدر السابق ، ص ص62-63.
46. WWW.Encyclopedia of Catholic , Augustine
47. أرثر نوسيوم، الوجيز في تاريخ القانون الدولي ت: رياض القيسي ، بغداد ، 2002 ، صص62-63.
48. ديورانت ، المصدر السابق ، ص149.
49. رأفت عبد الحميد، المصدر السابق ، ص12.
50. جان جاك شوفاليه ، المصدر السابق ، ص ص157-158.
51. جوزيف نسيم ، نشأة الجامعات في العصور الوسطى ، بيروت ، ص ص 29-30.
52. Catholic Encyclopedia : pope.st.Leo I (the Great).
53. Catholic Encyclopedia : pope.st.Leo I (the Great)..
54. محود سعيد عمران وآخرون ، النظم السياسية ، ص181.
55. Free Encyclopedia: pope set .LeoI (the great).
56. Catholic Encyclopedia set . Gelasius I (492-496)
57. جوزيف نسيم ، تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها ، ص171.
58. Catholic Encyclopedia: The Theory of Two Swords.
59. محمد كمال ليلة ، النظم السياسية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1963، ص ص 410-412.
60. Free Encyclopedia ,st Benedict (480-547).
61. نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ص141-142.
62. روبرت بالمر ، تاريخ العالم الحديث ، ج1، ت: محمود حسين الامين ، القاهرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، 1956،ص43..
63. Msgr Philip , History of the Church ,2005,pp20-21; www.freivald. Org/jake/ library/ history of the Church .
64. . Chapman , J . 9 1910) pope histories . In the catholic Encyclopedie
65. Joseph , Mccabe , Crises in the History of the Papacy , New York , 1916 , pp 15-15.
66. Shahan , T, . Pope sat. Damsus I , In the catholic Encyclopedie new York : Robert Appleton company.
67. Joseph , Mccabe, p p 25-30.
68. Ibid,pp 22
69. Kirsch , J.P. (1912) . Pope st .Symmachus (498-514) . In the Catholic Encyclopedia , New york : Robert Appleto Company.
70. Joseph , Mccabe ,op.cit ,pp33-40 ; Catholic Encyclopedia , St. Pope Bonifacee II (530-532).
71 سعيد عبد الفتاح ، المصدر السابق ، صص 85-88.